الكتاب الآمن

أ. د كمال الدين حسين

مفهوم الكتاب الآمن :

مما لا شك فيه أنه ومع التقدم التكنولوجي (التقني) في وسائط الاتصال/ المعرفة المتنوعة، إلا أن الكتاب سيظل متفرداً في أهميته بين كل الوسائط التقنية لسهولة التعامل والتواجد معه في كل مكان وأي زمان.

ويحتل الكتاب المطبوع هنا المصدر الأهم في ثقافة الإنسان كبيراً كان أم صغيراً، لذلك يعطى الكتاب ومازال بكثير من الاهتمام سواء من حيث تطوير الشكل أو محتوى الخطاب الثقافي والمعرفي الذي يقدمه ليتناسب مع احتياجات الإنسان في عصر التعقيدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية الذي نعيشه، ويساعد على الرؤية الموضوعية وييسر له التفسير والفهم لكثير من القضايا التي قد تلتبس على فهمه جوانب ما قد يحتويه له من منفعة.

وتتجدد هذه الأهمية لا تقل أيضاً خطورة الكتاب كوسيط قد يسبب كثيراً من الاضطراب الثقافي والمعرفي للإنسان عندما يتعرض لخطاب ثقافي متعصب أو يحمل معتقدات وما يعرفه وما يشكل ثوابت اعتقاداته وتوجيهه أو ثوابته أو ثقافته.

من هنا كان لابد من الحديث عن الكتاب الآمن، والذي يسعى للتأكيد على ما أعرفه "بالشعور بالأمان الثقافي" وهو ما يرتبط بشكل الكتاب الذي يقدم للإنسان / الطفل في

الكتاب الآمن

أ. د كمال الدين حسين

مفهوم الكتاب الآمن :

مما لاشك فيه انه ومع التقدم التكنولوجى (التقنى)، فى صناعة وسائط التثقيف المتنوعة، إلا أن الكتاب سيظل متفردًا فى أهميته بين كل الوسائط التثقيفية، لسهولة التعامل والتواجد معه، فى كل مكان وأى زمان.

وستظل الكلمة المطبوعة هى المصدر الأهم فى تثقيف الإنسان، كبيرًا كان أم صغيرًا، لذلك حظى الكتاب ومازال بالكثير من الاهتمام، سواء من حيث تطور الشكل أو محتوى الخطاب الثقافى والمعرفى، الذى يقدمه، ليتناسب مع احتياجات الإنسان فى عصر التعقيدات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتقنية الذى نعايشه، ويساعد على إثرائه معرفيًا، وييسر له التفسير والفهم لكثير من القضايا التى قد تنغلق على فهمه، بجانب ما قد يحققه له من متعة.

بجانب هذه الأهمية لا تقل أيضًا خطورة الكتاب، كوسيط قد يسبب كثير من الاضطراب الثقافى والمعرفى للإنسان، عندما يتعرض لخطاب ثقافى يخالف أو يجادل ما يعتقده، وما يعرفه، وما يشكل ثوابت اعتادها، دون تمهيد أو تنبيه أو استعداد.

من هنا كان لابد من الحديث عن الكتاب الآمن، والذى يسعى للتأكيد على ما أعرفه "بالشعور بالأمان الثقافى"(وهو ما يرتبط بمحتوى الكتاب الذى يقدم للإنسان / الطفل فى

شكل إبداعات أدبية، أو مادة علمية، تحقق الاتساق الثقافى والمعرفى من جهة وتشكل نقطة انطلاق للسعى نحو مزيدًا من المعرفة بتنوع دروبها).

والأمان الثقافى فى رأيى هو أساس الأمان النفسى وسواء الشخصية، أو الأمان الوجدانى لو سلمنا بأن الوجدان هو حالة شعورية تعكس البناء النفسى الداخلى للإنسان بما يتضمنه من دوافع وانفعالات ومشاعر ورغبات، تؤثر على سلوك الإنسان وتكيفه مع المجتمع، والسعى لإشباع احتياجاته المختلفة تبعًا للمعايير الاجتماعية التى ترتضيها الجماعة التى يعيش بينها، ويخضع هذا الإشباع لعوامل خارجة عن إرادة الإنسان، والتى تكون عادة ثقافية واجتماعية، وما بين الرغبة فى الإشباع الذى يحقق اللذة، والحرمان الذى يجلب الألم، تلعب الأساليب التربوية دورًا لصالح التوازن الوجدانى الذى ينتج عن المصالحة بين الرغبات التى تتطلب الإشباع، والعوامل التى تفرض إرجاء هذا الإشباع لصالح الفرد والجماعة، وتحقق للفرد القبول الاجتماعى والأمان النفسى الذى نسعى جميعًا لتحقيقه لدى أطفالنا، لينشئوا أسوياء نفسيًا، بعيدين عن كافة أشكال الاضطرابات والمشكلات النفسية التى قد يسببها الاضطراب المعرفى، وعدم القدرة على تحديد الأهداف والغايات، وسبل الإشباع السوى، والتى يعانى منها العالم اليوم.

أما الأمان أو الاستقرار الثقافى، فهو تأكيد كل ما يقدم على صحة ما نعتقده، مع القابلية لتعديل ما يحتاج منه إلى التعديل تبعًا لمنطق الحتمية والضرورة والصالح العام، بمعنى أن يتناسب التعديل مع الاحتياجات الفعلية التى تظهر فى شكل احتياجات جديدة تتجاوز ما اعتدنا عليه، وتعمل فى نفس الوقت لصالحنا وفى سياق الثقافة العامة للمجتمع وفى اتساق معها، مثل الانتقال من طبقة اجتماعية إلى طبقة أخرى، أو الانتقال من حى سكنى أو مدينة إلى مدينة أخرى، قد يحتاج هذا الحراك إلى عادات جديدة وسلوك جديد، لابد من التمهيد لهما بالشكل الذى يتسق مع ثقافتنا العامة، تماما مثل ترجمة كتاب من ثقافة إلى ثقافة، لابد أن يكون بينهما رابطًا مشتركًا، قد يكون فى أهمية الكتاب المترجم فى إشباع حاجة معرفية ما تعجز عن إشباعها الكتب المحلية مثلاً، ودون الإخلال بالطابع الثقافى العام الذى يحدد هويتنا الثقافية، بل يسير فى اتساق معه، وبالتالي يصبح التطور والتعديل منطقيًا متدرجًا، بعيدًا عن المفاجأة. ومن هنا نجد أن الاستقرار الثقافى المقصود لا يعنى الجمود، بل يعنى

التأمل والتمهل قبل السعى للتطور، فالتطور المبنى على الاستقرار أكثر رسوخًا من التطور المفاجئ.

هنا يأتى دور الكتاب الآمن الذى يحقق الأمن الوجدانى من خلال ما يقدمه من نماذج إنسانية وسلوكية يتوحد معها القارئ ويتمثلها، ويتجاوز بما تعلمه واكتسبه عنها، المآزم النفسية التى قد تصيبه إن لم يكتسب الحصانة الأدبية من الكتاب الآمن، فالكتاب، والأدب بشكل عام، يمهدا الطرق والسبل أمام القارئ ليعرف من الخبرات وأساليب حل المشكلات، ما لم يمكن أن يتعلمه من الحياة إلا إذا تعرض لخطر ما، وبالتالى فالإبداعات الأدبية الآمنة تمهد له المعرفة اللازمة، وتساعده على حل المشكلات التى لم يختبرها من قبل فى الحياة، لكنه عايشها مع أبطال القصص التى استهوته وتوحد معها ذات يوم.

لكن ألا يعنى الكتاب الآمن، أن يكون الكتاب مناسبًا للطفل ؟

فى رأيى أن هناك فرقًا بين أن يكون الكتاب مناسبًا للطفل فقط، وأن يكون آمنًا، ومناسبًا أيضًا، فالكتاب المناسب يقصد به فى معظم الأحوال أن يكون كتابًا مناسبًا لخصائص المرحلة العمرية الموجه إليها من حيث مستوى اللغة، ومستوى إدراك الطفل للخبرات، والمستوى العقلى فى الفهم، ومستوى ما تقدمه من خبرات ونماذج تتناسب مع تساؤلات طفل المرحلة العمرية، واحتياجاته المعرفية، لكن هل كل الخبرات التى تقدم للأطفال والنماذج التى يفترض أن يتوحد بها ومعها ليتعلم منها، تكون إيجابية أو آمنة ؟

فى كثير من الأحيان، خاصة عند التعامل مع موضوعات مترجمة أو منقولة عن خبرات أجنبية، تأتى الخبرات بمفاهيم وقيم لا تتسق مع ثقافة المجتمع، أو الواقع الذى يعيشه الأطفال، من جانب آخر قد تكون الشخصيات أو النماذج المقدمة مشوشة غير متسقة مع أفعالها، غير واضحة فى دوافعها النفسية، ولا يخضع حل الصراع لمنطق واضح بسيط فى حدود إمكانية الطفل، خاصة فى الأعمال التى تحاول اللعب مع التراث وتضع شخوص غير التى صيغت الحكايات عنها، فيحدث الاضطراب، فمثلاً حكاية تحكى عن أرانب، تعاد صياغتها واستبدال الأفيال بالأرانب، فكيف تستقيم الأمور ؟

إذن هناك فرق بين أن يكون الكتاب مناسبًا، وأن يكون آمنا، ويتحقق الكتاب الآمن من خلال بعض المعايير الخاصة بالكتابة للأطفال، أوجزها فيما يلي :

١. الاتساق مع وليس الارتباط بثقافة المجتمع :

هناك فرق بين الاتساق مع الشيء والارتباط به، أما الاتساق فالمقصود به هنا أن يجئ المحتوى الثقافى للكتاب - ما يطرحه من قيم وأعراف ومعتقدات، وأساليب لحل المشكلات فى خطابه الثقافى – متسقة مع عناصر الثقافة العامة للمجتمع خاصة تلك التى يرى المجتمع صلاحها لتنشئة أبنائه (والمقصود هنا الخبراء والعلماء المتخصصون) والتي يجب أن تتوحد فى كافة خطابات الوسائط التثقيفية، حتى وإن اختلفت الخبرات التى تقدمها وأيا كن مصدرها، وهذا يساعد على الانفتاح على ثقافات أخرى ومنح الكاتب حرية الاختيار منها بشرط الاتساق مع الثقافة العامة حرصا على تحقق الآمان الثقافى، فنحن نتعامل مع طفل قليل الخبرة غير قادر على التمييز ما بين الخيال والواقع، وبالتالى كل ما يقدم إليه سيتعامل معه على أنه واقع، ولابد ألا يكون هذا الواقع مضطربًا.

أما الارتباط فيعنى السعى فقط للنقل من المرتبط بثقافتنا فقط، وهذا يعنى الانغلاق الثقافى، الذى يبعدنا دومًا عما يدور حولنا فى العالم، ويجعل أبنائنا يصطدمون بما يشاهدونه فى وسائط إعلامية ويجدونه مخالفًا وغريبًا، وغير مفهوم، مع كل ما فيه من عوامل جذب ويصبحوا عرضة لكثير من التشوش الفكرى.

من هنا لابد وأن يأتى المحتوى، بالغريب والجديد، الذى يتسق مع ثقافتنا، فيكون إضافة وحافزًا لمزيد من المعرفة.

٢. الموضوعية فى التناول :

يرتبط بما سبق ضرورة أن يكون هناك موضوعية فى تناول كل ما يقدمه الكتاب خاصة كتاب الأطفال، ومن هذه الموضوعية ضرورة أن يتناول الكاتب القضايا الحقيقية المعاصرة للطفل فترة الكتابة، وليس للطفل الذى كان عليه منذ عشرون أو ثلاثون عامًا، فهناك بعض الكتاب يكتبون لطفل اليوم وفى ذهنهم أحلامهم أيام الطفولة، متناسين أن طفولة اليوم تختلف عن طفولتهم فى احتياجاتها، وسبل إشباعها، وحتى يتحقق ذلك لابد أن يلم كاتب الأطفال باحتياجات طفل اليوم، ومشاغله، واهتماماته، وتساؤلاته، ويحاول من خلال ثقافته المعرفية (التربوية والنفسية والأدبية) أن يبدع معادلاً موضوعيًا مناسبًا للإجابة عليها، دون العودة لطفولته أو تقمص دور الطفل، بل يحاول فهمه والاقتراب منه. وأن يتذكر أن هناك فرقًا بين ما كان مناسبًا للأطفال منذ عشرين أو ثلاثين عامًا، واليوم، تمامًا مثل لعب الأطفال التى يلعب بها الأطفال اليوم، تختلف كثيرًا عما كنا نلعب به منذ ثلاثين عامًا مثلاً.

تتطلب الموضوعية أيضًا أن يكون الكاتب محليًا فى المقام الأول، يهتم بقضايا مجتمعه، ولا يجرى وراء ما يكتبه الآخرون، فالخبرات والمواقف والأطر وعناصر الأحداث تختلف من مجتمع لآخر، وإذا نقلت أو ترجمت بغير وعى فتفسد أكثر مما تصلح أن يكون الكاتب أيضا على ثقة بما يكتب، وأن يضع فى الاعتبار أن ما يقدمه الكتاب لا يستطيع أى وسيط ثقافى آخر تقديمه خاصة فيما يتعلق بتنمية الخيال.

٣. الإحساس بالمسئولية تجاه الأطفال :

كل ما سبق يرتبط بشرط هام لتحقيق الكتاب الآمن للطفل، وهو ضرورة الإحساس بالمسئولية، تجاه الطفل، وسوف أشير هنا إلى بعض الملاحظات حول واقع الكتابة للطفل، رصدها رسام الأطفال محى الدين اللباد، فيما يعرف "بفلسفة الكم على حساب الكيف" أو خطورة الانتشار الأفقى فى كتب الأطفال، يقول اللباد : "إنه أمام مشكلة حرمان الأطفال من الكتاب، لم يكن أمام المهتمون إلا إعطائهم ما يسد رمقهم، على الفور، وأصبحنا نشهد تمددًا أفقيًا هائلاً فى إصدار كتب الأطفال، ومن حقنا لفت النظر إلى مخاطر هذا الأسلوب إن كان يضر بالناتج والمهنة، إن المساحات الشاسعة من ورق كتب الأطفال الأبيض، أصبحت أوسع من أن تغطيها الكفاءات المحلية من كتاب ورسامين، بعد أن توسع إنتاج كتب الأطفال توسعًا أفقيًا هزيلاً، لذا ازداد اعتماد الناشرين على الكتب المترجمة التى تنشر بصورها الفوتوغرافية، ومنها الكتب القصصية المصورة الأجنبية التى لا يتوخى الدقة فى اختيارها، (ثم يتساءل) هل ينجح هذا التمدد الأفقى فى حل مشكلة الفقر الشديد فى كتب الأطفال ؟ وهل هى مشكلة يمكن علاجها بحلول بالغة السرعة وفورية بهذا الشكل ؟

من هنا لابد التأكيد على أهمية إحساس الكاتب بمسئوليته تجاه الأطفال، والتى تحتم الاهتمام بالكتاب شكلاً ومحتوى، ليجئ كتابًا يتوفر فيه ما سبق الإشارة إليه من تحقيق الاستقرار الثقافى.

٤. الحرية والصدق في العرض :

يرتبط بالإحساس بالمسئولية تجاه الطفل، الحرية والصدق فى تناول كل ما يقدم من محتوى للأطفال، بمعنى أنه لابد من عرض كافة الحقائق على الأطفال والإجابة على كل ما يسألون عنه، لا تحريم ولا منع ولا تابوهات، نحن نعيش فى عالم رحب من المعرفة، كل المعارف متاحة أمام الجميع، فإن لم تقدم للطفل من خلال وسائطه وبالأسلوب الذى يتناسب مع مستوى نمو قدراته العقلية، وإدراكه، فسوف يلجأ إلى وسائط أخرى قد تفسد الأمور عليه بدلاً من إصلاحها. وهنا يكون التحدى الأكبر أمام كاتب الأطفال، الذي لابد أن يضع أمامه شعار لا حساسية، ولا ممنوع فيما نحدث الأطفال عنه، طالما يشغلهم ويسألون عنه ، وبصرف النظر عن أى تميز دينى أو عرقى أو جنسى فالجميع سواء أمام المعرفة ولهم نفس الحقوق فى أن يعرفوا، وأن يقدم لهم كافة الخبرات والنماذج المناسبة الصادقة بالقدر الذى يتناسب مع مستويات النمو العقلى، والنفسى، والانفعالى، والمعرفى ،والاجتماعى.

٥. الإحساس بأن هناك شيئًا نود مشاركة الأطفال فيه :

الأمـر يحتاج فقط من الكاتب الذى يؤمن بأهمية الطفولة ودور الأب فى المساعدة على تنشئة طفـولة سعيدة سوية، أن يشعر بداخله شيئًا ما يريد أن يشارك الأطفال فيه، وهذا يمكن تحقيقه إذا عرف جيدًا من هم الأطفال الذين يـود التواصل معهم، وما هى احتياجاتهم، واهتماماتهم، وكيف يتم التواصل معهم، هنا تتحقق المشاركة الكاملة معهم بخبرة، أو فكرة، أو معلـومة، أو قيمـة، أو تسلية، كل الأشياء مباحـة طالمـا تقـع فى دوائـر اهتمامـهم وتجـذبهم، ويستمتعـون بـهـا، ويشعر الكاتب أنه بها قد أشبع احتياج حقيقى لدى الأطفال.

٦. الثراء المعرفى للكاتب :

يتطلب الأمر إذن كاتبًا ذو معرفة موسوعية، معرفة تتميز بالثراء فى معظم المجالات إن لم يكن كافة المجالات التى تدور حول الطفولة، ومنها النمو النفسى، والعقلى، والاجتماعى، والتربوى، واللغوى، وبعض المجـالات العلميـة الحديثـة، كاتب مطلع دومًا على أحدث الأفكار والإنجازات العلمية والاقتصادية والسياسية، إن الطفل اليوم يعيش عالمًا معرفيًا لا حدود له، وتثـار لديـه العديد من التسـاؤلات، حـول الحـروب قبـل السـلام، حـول العـدوان قبـل الحـب، حـول الأطفـال الجيـاع والمشردون قبل لعب الأطفال، ولابد من وجود الكاتب القادر على متابعـة ما يـدور فى العالم، ويجيب على تساؤلات الأطفال عنها، مثل هذا الكاتب هو من نحتاجه اليـوم ليعـرف كيـف يحـدد جمهـوره واحتياجـاتهم، وكيـف يمكـن الإجابـة علـى تساؤلاتهم، بأسلوب فنـى مناسب متسق مع ثقافتهم، إن الثـراء المعرفـى والاطـلاع الموسوعى ليس ترفًا اليوم، بل هو السبيل إلى إبداع متميز متنوع ثرى.

٧. التعرف على السائد في عالم كتاب الطفل والسعي نحو الجديد :

من ضمن ما يجب أن يلم به كاتب الأطفال جيدًا، ما كتب ويكتب للأطفال من حوله وفى العالم، لابد من الاطلاع وقراءة إبداعات الآخرين، حتى يمكن له أن يستشرف الجديد الذى يمكن أن يضيفه إلى التراث الأدبى، ولا يبدأ من الصفر، أو من حيث تحرك الآخرين منذ عقود، فالكتابة لابد أن تتطور مثلها مثل أى إبداع أنسانى، تتطور لتلاحق احتياجات القارئ المتطورة أصلاً، وإن كانت الخبرات الإنسانية، والنماذج، والقيم ذاتها خاضعة للتطور، فلابد أن يواكب الإبداع هذا التطور، وهذا لن يحدث مع كاتب تقوقع على ذاته ووقف محلك سر كما يقولون. أيضًا متطلبات السوق والناشرون، يجب أن يكون الكاتب على وعى بها، حتى يجد من ينشر أعماله وتصل إلى قرائه، ويتحقق هدفه.

٨. الإيمان بأن الكتابة للأطفال ليست سبيلاً للشهرة والثراء أو تقلد المناصب:

بداية أود أن أوضح أن كافة الكتب العالمية التى ترشد من يريد الكتابة للأطفال، تشير إلى أن هذا النوع من الكتابة ليس سبيلاً سهلاً للشهرة أو الثراء، أما إضافة تقلد المناصب فهى من عندى، وترتبط بالواقع فى عالمنا العربى والمصرى، فمنذ أن بدأت الحكومات فى الاهتمام بالأطفال وثقافتهم، حتى فوجئنا بكثير من قناصى الفرص والموظفين الساعين لمزيد من المناصب، يكتبون للأطفال، طمعًا فى منصب أو عضوية لجنة، أو كسب الرضا من أصحاب الرضا، وبالطبع كان هذا وراء كم الغث الذى اغرق سوق كتب الأطفال، بأنصاف الإبداعات، والأفكار، وهذا بعض مما أشار إليه اللباد، ويؤكد أن الكتابة الصادقة لا ترتبط بالمناصب.

والأمر أشبه بما حدث بعد انتشار هارى بوتر وارتفاع صاحبتها إلى مصاف المليونيرات، وشاهدت الساحة الأدبية سيلاً من الكتابات التى تقلد ويسعى أصحابها

لحظ مثل حظ رولينج، وبالطبع لم يتحقق لهم أى من هذا، ذلك لأن الكتابة للطفل لابد أن تنبع من الصدق الحقيقى والموضوعية والإحساس بالمسئولية تجاه الأطفال.

وأخيرًا إن الكتابة للطفل مثلها مثل الحكايات الشعبية، لها دستورها الذى يجازى البطل، والبطلة، لخصال حميدة فيهم، منها الصدق والأصالة وإنكار الذات والمعرفة والموضوعية، والإيمان بما يعمل، عندها سينجح ويتزوج الأميرة ويتحقق حلمه بالثراء والسلطة.

هذا ما يرتبط بالمحتوى الآمن، وكيفية تحقيقه الأمان الثقافى، والاستقرار الثقافى.

أما من حيث الشكل :

فهناك شكل خارجى للكتاب، وخامات يصنع منها، ويبدأ الشكل الخارجي بالغلاف الذى لابد وأن يصنع من مادة تتناسب مع استخدام الأطفال تبعا للمراحل العمرية، وأن يكون الحجم أيضًا مناسبًا لقدرة الطفل على التعامل مع الكتاب، وأن تكون الرسوم واضحة مبهجة معبرة عن النغمة العامة للقصة.

والخامات التى يصنع منها الكتاب لابد أن تكون من مواد آمنة، والأحبار خالية من الرصاص أو المواد المشعة التى قد تستخدم فى الألوان.

وفى تصميم الكتاب يجب مراعاة التناسب بين مساحات الكلمات والرسم، وأن يتناسب الأسلوب المستخدم فى الرسم مع قدرة الأطفال على إدراكه وفهمه، قادر على تنمية التذوق الحسى والجمالى للطفل.

والكتابة لابد أن تكون ببنط مناسب لقدرة الطفل على القراءة والتعرف على الحروف دون إجهاد بصرى، حتى فى تلك الكتب التى تقرأ على الطفل، يجب مراعاة البنط، لأن هناك احتمال أن يحاول الطفل – وهذا احتمال أكيد – التعرف على الكلمات التى تقرأ عليه، وهذا أحد أساليب تهيئة الطفل للقراءة والكتابة.

هذه أهم الملاحظات التى يمكن تقديمها للمهتمين بصناعة كتب الأطفال، لإنتاج كتاب آمن، وإن كانت هذه مسئولية الناشر فى المقام الأول، فإن المسئولية أيضًا لا تقل أهميتها لدى الكاتب الذى أوليناه كثير من الاهتمام هنا، فهو من يملك المفتاح السحرى لدخول عالم أدب الطفل، هو من يملك الخيال والكلمة.